

البنوية في أفق التفكير الهرمينوطيقي عند "بول ريكور"

ذ. أشرف رشاق

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال

جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب

تخصص: فلسفة، مختبر السرد والأشكال الثقافية: الأدب واللغة والمجتمع

ملخص

يعتبر "بول ريكور" من الفلاسفة المعاصرين الذين انخرطوا بشكل كامل في إعادة صياغة مشروع هرمينوطيقي جديد يتجاوز النظرة التقليدية للفلسفة الهرمينوطيقية، من خلال إعادة فتحها على آفاق جديدة ورفضه أي إقصاء للمجهودات المبذولة من طرف الباحثين في مجالات مختلفة تنتمي بالدرجة الأولى إلى مباحث العلوم الإنسانية، بل وجعل هذه المباحث مكملة لمشروعه الهرمينوطيقي ولرؤيته الخاصة لإشكالات الفهم والتأويل، وهو ما جعله يعيد النظر في المسلمات البنوية ليفككها ويبحث لها عن مكانة في مشروعه التأويلي يخرجها من اختزالياتها ويجعلها منفتحة على المرجع والتجربة المعيشة.

الكلمات المفتاح: الهرمينوطيقا، التأويل، البنوية، التجربة المعيشة.

تقديم

لقد حاول الفيلسوف "بول ريكور"، أو كما يفضل البعض تسميته بفيلسوف التخوم¹ un philosophe des frontières، وضع الأسس النظرية والعملية لمشروعه الهرمينوطيقي عبر فتح الفلسفة على كل حقول المعرفة الإنسانية، فناعة منه بكون الفكر الفلسفي يحى بالتواصل والانفتاح لكنه أيضاً يحتضر بانغلاقه على الذات. لذلك تعتبر من أبرز القضايا والإشكالات التي جعلها "بول ريكور" في صلب اهتماماته الفلسفية وحجر الزاوية في مشروعه التأويلي، تلك التي تهم بشكل أساس العلاقة الجدلية القائمة بين الفهم والتفسير في بناء مشروعه التأويلي الموجه نحو قراءة النصوص والخطاب.

لقد كان هدف "بول ريكور" هو المحافظة على مكانة الفهم والتفسير في قراءة النصوص وذلك من خلال تبيان العلاقة القائمة بين ما هو معيش وما هو مروي، جاعلاً بذلك من الأحداث المروية أحداثاً يمكن إخضاعها لعملية التفسير من خلال تحليل البنى الداخلية لما هو مروي في حدود انغلاق النص، كما أن دلالاتها الأنطولوجية تمر بعملية الفهم الروائي للأحداث باعتبارها أحداثاً ممكنة تحيل على الواقع وتتطلب نوعاً من التأويل الهرمينوطيقي. فالبعد السردى حسب "ريكور" يجعل من الحدث المروي أحد الإمكانيات الأكثر ملاءمة للتعبير عن التجربة الإنسانية وبعدها الوجودي.

هذا التقييم الشمولي جعل "ريكور" ينتبه إلى أهمية البعد اللغوي والسردى في التعبير عما هو أنطولوجي، ودفعه إلى الخوض في عمق هذه العلاقة ليجد نفسه أمام تحدي إعادة النظر في مجمل المسلمات التي تشكلت على أعقاب النظريات في اللسانيات وتحليل الخطاب، بدأ من بنوية فردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure

¹ Charles Taylor, *Une Philosophie sans Frontière*, Magazine Littéraire, N°390, Septembre 2000, p. 32.

وصولاً إلى سيميائيات جوليان ألجيرداس غريماس² Julien Algirdas Grimas، وإعادة تفكيكها وتنظيمها وفق ما يتماشى مع مشروعه الفلسفي الهرمينوطيقي.

1) نقد "بول ريكور" لتحليل البنيوي

إن استحضر العلاقة بين عالم النص والواقع عند "بول ريكور" هو استحضر للإشكالات المرتبطة باللغة والأنساق التي تعمل وفقها، وانفتاح على القضايا التي تهم البعد الأدبي في رواية الحدث والتعبير عن التجربة المعيشة عن طريق الحكيم والرواية وتفعيل الخطاب. هذا الانفتاح هو ما جعل مشروع "ريكور" يحدث انقلاباً ثورياً على الأنساق الفلسفية التقليدية التي كانت ترى في الخطاب الفلسفي تلك الصرامة العقلية والمنطقية، وترفض الإشتغال من خارج النسق. مما جعل من فلسفة "ريكور" الهرمينوطيقية فلسفة فعل (action) تسعى لأشكلة القضايا الإنسانية في بعدها الوجودي عن طريق توظيف أدوات تواصلية وإعادة بناء التجربة الإنسانية فينومينولوجياً لإمكانية فهمها وتأويلها. وهو ما دفعه إلى التركيز على ضرورة التفكير عبر الوسائط les médiations من خلال فهم الجانب اللغوي والبعد السردي للتجربة المعيشة.

لقد سعى "بول ريكور" إلى التأكيد على الأهمية البالغة للغة في عملية الفهم، فبادر بالعمل على تفكيك الأنساق اللغوية وإعادة بنائها باعتبار أن اللغة، من وجهة نظره، ليست مجرد ألفاظ وعبارات وجمل جوفاء تستعمل للتعبير عن عالم الأشياء، بل هي كيان قائم بذاته له القدرة على الكشف عن حقيقة الأشياء بوسائط مختلفة. لهذا دعا "ريكور" إلى ضرورة الانطلاق من الأعمال الأدبية لأن لها القدرة على التعبير عن عمق التجربة الإنسانية وتنوعها. مما يجعل من «الحقيقة الأهم للتجربة غير قابلة للتبليغ... أو بالأحرى لا يمكن أن تكون إلا من خلال الكتابة الأدبية»³. إن القصة المروية في

² Paul Ricœur, *Réflexion faite, Autobiographie Intellectuelle*, éd. Esprit, Paris, 1995.

³ بول ريكور، *حي حتى الموت*، ترجمة وتقديم عمارة ناصر، منشورات ضفاف، بيروت، 2016، ص، 53.

حدود انغلاق النص ووفق العلاقات المترابطة لبنيته الداخلية يمكن إعادة عيشها بفعل التخيل وتأويلها، مما يبرز قدرة اللغة على التعبير عن البعد الوجودي للتجربة الإنسانية. لقد أراد "بول ريكور" إبراز العلاقة الدالة بين الوظيفة السردية والتجربة الإنسانية، وذلك من خلال تصديده لمحاولة علم السرد البنيوي عقلنة السرد وإغلاق النص ضمن مقولات علم اللغة، مؤكداً على ضرورة فتح النص على مرجعه الخارجي وعلى معضلات التجربة المعيشة.

إن اكتفاء علم اللغة بذاته، وافترض بنيوية "دي سوسير"⁴ على أن هناك فصلاً للعلاقة بين اللغة والواقع الخارجي، جعل من اللغة في النظام البنيوي منفصلة عن الواقع والتجربة المعيشة، باعتبار أن العلامة اللغوية داخل البنية والنسق تنبني أساساً على العلاقة بين الدال والمدلول أو بين التصور والصورة السمعية فقط، ولا يمكن إحالتها على معطيات الخارج. هذا الفصل جعل الأنظمة اللغوية أنظمة مغلقة ومكتفية بذاتها من خلال العلاقات الداخلية للعلامات. وهو ما يجعلها منفصلة عن أية علاقة بالخارج اللغوي والمرجع. وهكذا تصبح العلاقة اللغوية مختزلة في التفاعل بين محددين رئيسيين هما الدال والمدلول اللذان يخضعان لنوعين من التحليل: التحليل الصوتي والتحليل الدلالي، دون السماح لأي نوع آخر من التحليل يكون خارج مستويات البحث اللغوي.

يجدر بالذكر أن هذه البنى قد تم تطبيقها في مسار تطورها على نماذج ومستويات عدة بدأ بعلم الصوت الوظيفي، ثم علم الدلالة المعجمية وقواعد تركيب الجملة، إلى أن أصبح التحليل البنيوي للسرد واحداً من إحدى المحاولات لتوسيع هذا النموذج البنيوي ونقله لكيانات لغوية تتجاوز مستوى الجملة إلى مستوى الخطاب، مع العلم أن الجملة هي أكبر وحدة لغوية استطاع علم اللغة التعامل معها وتأطيرها. وهكذا تم ترحيل هذا النموذج من مستوى الجملة في علم اللغة إلى مستوى الخطاب في التحليل البنيوي

⁴ انظر كتاب: فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، 1985.

للسرد. وبما أن الخطاب في معناه الضيق هو تتابع لجمال تضع داخلها قواعد تأليفها وتنظيمها، فإن السرد هو أحد أوسع أصناف الخطاب الذي يتألف من متواليات الجمل الموضوعية على ترتيب معين ليس بالضرورة خاضعا لنظام داخلي يوجهه.

إن هذا التحول الاستراتيجي في مستويات التحليل البنيوي جعل علم اللغة يتوسع ليمتد إلى تحليل الخطاب الذي أصبح فيه السرد القصصي موضوعا لممارسة وشكلا من الفهم، وهو ما جعل إمكانية البحث عن نوع من العلاقة المحتملة بين الدلالة التي يمكن أن تصاحب التحليل البنيوي وبين الفهم السردى. وبما أن أهم الخواص البنيوية لنظام لغوي ما تتجلى في طبيعته العضوية والتكامل بين أجزائه، بعبارة أخرى أسبقية الكل على الأجزاء وتراتبية المستويات الناجمة عن ذلك، فإن "ريكور" قد وجد في هذه الخاصية توافقاً محفزاً مع ما أسماه على مستوى الفهم السردى «العملية التصويرية»⁵.

يرى "ريكور" أن هذا الانغلاق على الذات الذي تعبر عنه البنى الدلالية في التحليل البنيوي كفيل بوسم البنيوية على أنها نمط كلي من التفكير لم تعد اللغة تظهر فيه بوصفها توسطاً أو وساطة بين العقول والأشياء، بل تشكل عالمها الخاص الذي تنسج فيه العلاقات على مستوى الوحدات الداخلية فيما بينها، وتتوسط العلامات بين بعضها البعض من داخل بنية اللغة وليس من الخارج، أي ليست وساطة بين اللغة والواقع الخارجى. عند هذه النقطة المفصلية تختفي حسب "ريكور" وظيفة اللغة بوصفها خطاباً، حيث يصرح: «لم تعد اللغة تظهر بوصفها توسطاً أو وساطة بين العقول والأشياء. بل تشكل عالمها الخاص بها، الذي تشير فيها كل وحدة منه إلى وحدة أخرى من داخل هذا العالم نفسه بفضل تفاعل التناقضات والاختلافات والفروق القائمة في النظام اللغوي. وبعبارة وجيزة لم تعد اللغة تعامل بوصفها «صورة حياتية» - كما يعبر فغنشتاين

⁵ بول ريكور، الزمان والسرد: التصوير في السرد القصصي، ترجمة فلاح رحيم، ج 2، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2006، ص، 64.

- بل صارت نظاماً مكتفياً بذاته ذا علاقات داخلية فقط. وعند هذه النقطة بالضبط تختفي وظيفة اللغة بوصفها خطاباً»⁶.

لقد كان التركيز على البعد اللغوي في مشروع "ريكور" التأويلي يهدف بالأساس إلى التأكيد على أن اللغة ليست مجرد ألفاظ وعبارات وجمل تستعمل للتعبير عن عالم الأشياء فقط، بل ككيان قائم بذاته له إمكانات الكشف عن الذات، عن الدلالة الإنسانية الكامنة وراء الأشياء. فهي ليست وسيلة للتعبير عن الدلالة بقدر ما هي الدلالة عن الوجود الإنساني. ومن هنا تكمن أهمية فهم الخطاب وتأويله من أجل إعادة بناء التجربة الإنسانية والجمع بين المتنافر من خلال الربط بين أفق الكاتب وأفق النص وأفق القارئ. إن إعادة موقعة اللغة بوصفها وساطة بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، جعلت "ريكور" يعيد النظر في ثنائية "دي سوسير" المتعلقة بمصطلحي اللسان *Langue* والكلام *Parole* معتبراً أن الأولى هو اعتماد مصطلح الخطاب *Discours* بدل مصطلح الكلام *Parole*⁷. فالخطاب في نظر "ريكور" هو الواقعة اللغوية والحدث والفعل: «إن الفعل هو طريقة حضور الخطاب»⁸.

إن عدم ملائمة مستوى الخطاب هو ما شكل نقطة الضعف المعرفية لدى اللغويين والبنويين الذين التزموا حصراً بمعايير البنى والأنظمة الداخلية. لأن الخطاب ينطوي على البعد الزمني الذي يجعل منه واقعة وحدثاً، وهو بعد متغير لم تكن الأنظمة في اللسانيات البنيوية قادرة على مواجهته. لهذا، كانت الخطوة الأولى في تصور "ريكور" لبناء علم دلالة الخطاب، هي التخلص من هذا الضعف المعرفي لدى اللغويين والبنويين الذي يعيق إمكانية دراسة البعد الزمني في الخطاب، وهنا يعبر "ريكور": «لقد قلت من قبل

⁶ بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص 30.

⁷ المرجع نفسه، ص 25.

⁸ بول ريكور، صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية، ترجمة منذر عياشي، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2005، ص 124.

إن القصص تنجز على نحو مستمر تلك الانتقال بين التجربة التي تسبق النص والتجربة التي تعقبه. وأرى أن نظام الأزمنة النحوية بصرف النظر عن استقلاله عن الزمن وتعييناته الراهنة، لا يقوم أبداً بقطيعة واضحة على كافة المستويات مع تجربة الزمن. يخرج نظام الأزمنة النحوية من الزمن ويعود إليه»⁹.

من هنا يمكننا القول، وفق ما يراه "ريكور"، أن الخطاب باعتباره واقعة وحدثاً فإنه يدرك زمنياً وآنيّاً، أي لحظة وقوعه كفعل كلامي، بينما النظام أو النسق اللغوي فهو افتراضي وقبلي سابق عن الحدث اللغوي ويتموقع خارج الزمن: «نستطيع القول، إذا انطلقنا من تمييز سوسير بين اللغة والكلام، في الأقل على نحو تمهيدي، إن الخطاب هو الواقعة اللغوية. وبالنسبة للسانيات مطبقة على بنية الأنظمة، يعبر البعد الزمني لهذه الواقعة عن الضعف المعرفي (الإبستمولوجي) للسانيات الكلام parole. فالوقائع تختفي بينما تبقى الأنظمة. لذلك فالحركة الأولى لعلم دلالة الخطاب لابد أن تكون معالجة لهذا الضعف المعرفي للكلام النابع من الطبيعة المنفلتة للواقعة قياساً بثبات النظام بربطه بالأسبقية الأنطولوجية (الوجودية) للخطاب الناتجة عن فعلية الواقعة في مقابل افتراضية النظام»¹⁰.

يتضح أن "ريكور" استطاع من خلال مستوى الخطاب أن يجد منفذاً له للاعتراض على اختزالية البنيوية، وأن يرسم بوضوح التقابل بين قبلية الأنساق والأنظمة البنيوية وقبلية الخطاب كفعل. هذا التقابل لم يفض به إلى رفض الأنظمة البنيوية والقطع معها بشكل نهائي، بل إلى جعلها تنخرط في مستوى أكثر عمقاً من مجرد العلاقة الداخلية بين الدال والمدلول، وهو مستوى الخطاب وتأويله: «إذا أخذنا التحليل البنيوي على أنه مرحلة – ومرحلة أساسية – بين تأويل ساذج وتأويل نقدي، بين تأويل في السطح وتأويل في العمق، فسيبدو عندئذ من الممكن ردّ الشرح والتأويل إلى قوس هرمينوطيقي

⁹ بول ريكور، الزمان والسرد: التصوير في السرد القصصي...، ص 131.

¹⁰ بول ريكور، نظرية التأويل...، ص 34.

وحيد ودمج موقفي الشرح والفهم المتعارضين في تصور إجمالي للقراءة كاستئناف للمعنى»¹¹.

يبدو أن التقابل بين الهرمينوطيقا والبنوية أصبح قابلا للاستيعاب في اتجاه تحقيق مقصدين أساسيين وهما إنتاج الدلالة وجعل مستوى التفسير منفذا للفهم. بل بات يؤشر على نوع من التكامل الذي أصبحت فيه الأنظمة البنوية مرحلة أساسية تساهم بشكل فعلي في بناء الفهم التأويلي.

(2) من البنية إلى الدلالة

إن هذا التقابل الذي وضعه "ريكور" بين البنية والخطاب جعله يعيد ترتيب مستويات الدلالة محاولا إعادة ربط بعضها ببعض بما يتوافق مع مشروعه الهرمينوطيقي. لقد استطاع تقبل وجود قبلية لسانية تجعل من القدرة على الكلام خاضعة لمنظومة ولبنية دلالية موجودة سلفاً. هذا القبول بوجود بنية ونظام مؤطرين لفعل الكلام يؤدي في النهاية إلى الفصل بين البنية والتأويل، بعبارة أخرى بين البنية اللسانية وحدث المعنى الذي يقدمه الكلام.

في كتابه «صراع التأويلات»¹² يفتح "ريكور" الطريق أمام نوع من المصالحة، على شكل توسط، بين النظام البنوي والتصور الهرمينوطيقي، وهي مصالحة تبدو غير محتملة تصل بين المنغلق والمنفتح، بين الثابت والمتغير، بين النظام البنوي والفهم التأويلي، من أجل إعادة موقعة الخطاب داخل الحقل الدلالي المنتج للمعنى. يقول "ريكور": «كان يجب، لكي يفكر المرء بتضاد اللغة والكلام فعلياً، أن يستطيع إنتاج فعل الكلام في

¹¹ بول ريكور، من النص إلى الفعل: أبحاث التأويل، ترجمة محمد برادة-حسان بورقية، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001، ص 120.

¹² المرجع السابق، ص 120.

وسط اللغة نفسه، وذلك على هيئة إعلاء للمعنى، وإنتاج جدلي يصير النسق فعلاً والبنية حدثاً»¹³.

تتجلى خطوة "ريكور" في كونها تهدف إلى فهم الكيفية التي يمكن بها الانتقال من انغلاق العلامات إلى انفتاح الخطاب، وذلك من خلال توجيه الفصل بين ماهو دلالي *Sémantique* وما هو تأويلي. هذا الفصل كفيل في نظر "ريكور" بجعل الخطاب يفك ارتباطه باختزالية البنيوية اللسانية وتأطير العلاقة القائمة بين وحداته والدلالة التي تنتجها داخل مستوى أرحب وأوسع من المستوى البنيوي للغة. ويصبح الخطاب، بذلك، عبارة عن تركيب من العلامات تأخذ مكانتها وقيمتها الدلالية من خلال مستوى الفهم التأويلي. فما يريده "ريكور" هو القيام بنوع من التفكيك للبنى الدلالية للخطاب، وتحويلها من مستوى بنية للغة إلى مستوى تأويل الخطاب: «علينا أن نفهم الدلالة العميقة في معنى حركي للغاية، عندئذ سأقول ما يلي: الشرح هو إبراز البنية، أي العلاقات الداخلية التابعة التي تشكل ثابت النص؛ والتأويل هو سلوك طريق الفكر التي فتحها النص، هو السير باتجاه شرق النص. بهذه الملاحظة، نحن مدعوون إلى تصحيح مفهومنا الأولي للتأويل والبحث، من جانب عملية التأويل الذاتي كفعل على النص، عن عملية تأويل موضوعية تكون فعلاً يقوم به النص»¹⁴.

إن موقف "ريكور" من البنيوية ومحاولته إيجاد أرضية أرحب تكون قادرة على استيعاب الإشكالات المتعلقة بالخطاب والتجربة المعيشة، كانت تؤطره رؤية فلسفية بهواجس فينومينولوجية. لأن اللغة من منظوره الفينومينولوجي لم تؤخذ بكونها موضوعاً، كما كان الحال عليه بالنسبة للسانيات البنيوية، بل بوصفها وسيطاً. فاللغة تهدف إلى قول شيء ما عن شيء ما، وهي بذلك تتجه نحو ما تقوله فتتجاوز كونها قولاً لتتأسس كحركة قصدية مرجعية، عكس اللسانيات البنيوية التي تعتبر اللغة مكتفية

¹³ المرجع السابق، ص 123.

¹⁴ المرجع السابق، ص 120.

بذاتها ومحايثة وتجعل من نفسها منظومة ونسقاً سابقين عن الذات المتكلمة، وهو ما يعبر عنه "ريكور" عندما يقول: «وأما بالنسبة إلينا، نحن الذين نتكلم، فإن اللسان ليس موضوعاً، ولكنه وسيط. إنه هذا الذي من خلاله، وبواسطته نعبر عن أنفسنا ونعبر عن الأشياء. فالكلام، هو الفعل الذي من أجله، يتجاوز المتكلم انغلاق عالم الإشارات، بغية أن يقول كلاماً عن شيء لشخص من الأشخاص. والكلام هو الفعل الذي يتجاوز اللسان فيه نفسه بوصفه إشارة نحو مرجعه ونحو مواجهه. والكلام يريد أن يختفي، وأن يموت بوصفه موضوعاً»¹⁵.

يمكن القول إن مشروع "ريكور" يشكل تحدياً. فالفيينومينولوجيا في تحديد نظرتها حول الخطاب باعتباره منتجا للمعنى لم تعترض على التوصيفات المتعلقة بالكلام المنبثقة عن الإطار النظري للسانيات، بل من خلال مراجعة هيكلية للفروض البنيوية التي مكنته من فتح آفاق جديدة لفهم الوجود المتعالي للعلامات والمرجع. إنه من خلال وعن طريق لسانيات اللغة حيث أصبحت فينومينولوجية الكلام وعلم دلالة الخطاب ممكنة.

(3) من التفسير إلى الفهم

يندرج انفتاح "ريكور" على البنيوية ضمن مشروعه التأويلي لإقامة علاقة جدلية بين التفسير والفهم. فالتأويل بالنسبة له هو أن تفهم الذات ذاتها أمام النص. أن تفهم الذات ذاتها كآخر بواسطة النص. هذا التأويل تم وضعه على شكل دائرة هرمينوطيقية حيث يجب أن تجد فيه مرحلة التفسير مكانتها في سبيل تحقيق الفهم. وبهذا تكون الهرمينوطيقا، كلحظة من لحظات التأويل ومدخل لمشكلات الفهم، تمثل وجهة يمكن من خلالها النظر الى اللغة وتسليط الضوء على جوانب منها ومن فعل التأويل الذي يمكن إخضاعها له، سواء كان تأويلاً للفعل الإنساني أو لكيونته داخل أنساق لغوية تمثل النصوص فيها أبرز مكوناتها.

¹⁵ بول ريكور، صراع التأويلات ...، ص 122.

إن الانتقادات الموجهة من طرف "ريكور" إلى النظام البنيوي ومراجعته للإمكانات التي يتيحها انغلاق النص في قدرته على تفسير الأحداث وإنتاج المعنى من الداخل، لم تكن بمثابة الرفض لما يمكن أن يحققه هذا النظام في سبيل إنتاج المعنى، بل رفضاً لعدم قدرته على تجاوز النظرة الاختزالية التي جعلته غير قادر على الخروج من عالم النص والانفتاح على العالم والذات، يقول "ريكور": «لننتقل مرة أخرى من تحليلنا للنص ومن وضعه المستقل الذي اعترفنا له به بالمقابل مع الكلام وتبادل الكلمات. فما سميناه بانحجاب العالم المكتنف بشبيه عالم النصوص يوجد إمكانييتين اثنتين. بوسعنا كقراء، أن نبقى في تأجيل النص، والتعامل معه على أنه نص بلا عالم وبلا مؤلف؛ سنشرحه إذن انطلاقاً من علاقته الداخلية ومن بنيته. أو بإمكاننا أن نرفع التأجيل عنه وننتهي في الألفاظ، بإخضاعه للتواصل المباشر؛ فنحن إذن نؤوله. تنتمي هاتان الإمكانييتان معاً إلى القراءة، والقراءة جدلية هذين الموقفين».¹⁶

في خطوة هامة نحو تحقيق التقارب بين النظام البنيوي والفهم التأويلي يعيد "بول ريكور" النظر في الصياغة الأولية التي تجعل من التأويل ينتمي على فكرة تملكنا لقصدية النص. فعلم دلالة النص الذي يحيل عليه التحليل البنيوي يفتح المجال أمام قراءة متجددة لمفهوم القصدية، باعتبار أن قصد أو هدف النص لا يعني بالدرجة الأولى نية المؤلف المفترضة أو معيش الكاتب من خلال نقل وعي القارئ نحوه، بل ما يريد النص أن يقوله، وما يريد النص قوله هو أن نضع أنفسنا في معناه. فالقصد إذن هو قصد النص. وهو القصد الذي يضع الفكر في نفس اتجاه النص. هكذا تصبح العلاقة بين التفسير والتأويل علاقة تكامل وبناء للفهم، باعتبار مرحلة التفسير والتحليل البنيوي هي بمثابة جسر ينقل المعنى من مستوى بنية النص وانغلاقه إلى مستوى فهم الدلالة في بعدها الأنطولوجي. عندما يصرح "ريكور" قائلاً: «أحياناً يطيب لي أن أقول إن قراءة كتاب ما هي النظر إلى مؤلفه كأنه قد مات، وكأن الكتاب عمل بعدي. وبالفعل، تصبح

¹⁶ بول ريكور، من النص إلى الفعل...، ص 112.

العلاقة مع الكتاب تامة وثابتة بشكل ما، عندما يموت الكاتب؛ آنئذ لا يمكن لهذا الأخير أبداً أن يجيب، وما يبقى هو قراءة عمله فقط.¹⁷، يتضح من خلال هذا التصريح أن فعل القراءة أصبح فعلاً ملموساً يتحقق فيه مصير النص وقصديته، مما يفتح المجال أمام فهم مزدوج للعلاقة بين التفسير والفهم. حيث في التعارض على المستوى النظري والإجرائي بين التفسير والفهم تتم المصالحة والتكامل بينهما في بناء وإنتاج المعنى. هكذا، يصبح التباعد الذي سبق وأعلنت عنه الأنظمة البنيوية فيما يتعلق بالذات (الكاتب/القارئ) والمرجع (العالم) من خلال انغلاقية النص، يشكل في مشروع "بول ريكور" الهرمينوطيقي منطلقاً للفهم وأحد المستويات من مستويات الدلالة وبناء المعنى. يخلص "ريكور" إلى القول: «في نهاية البحث، يظهر أن فعل القراءة هو ذلك الفعل الملموس الذي يتم فيه مصير النص. بحيث أنه في قلب القراءة نفسه، يتعارض أبدياً الشرح والتأويل، ويتصالحان.»¹⁸. إن افتراض إمكانية التقارب والمصالحة هذا، بين الأنظمة البنيوية والفهم التأويلي، جعل "بول ريكور" يخطط في عملية إعادة استكشاف الإمكانيات التي يتيحها مفهوم المرجع والإحالة، من خلال تبني تصور مرن يفتح الباب أمام قراءة وفهم جديدين لتلك الاختزالية التقليدية التي رافقت مبدأ انغلاق النص وربط الدلالة بما تنتجه علاقاته الداخلية والمحايثة، دون الإحالة على المرجع الخارجي.

أيضاً، وإلى جانب وقوفها في وجه انغلاق النص والدلالة التي يتم إنتاجها من داخل النص، فقد سعت تأويلية "بول ريكور" إلى التخفيف من الآثار الإقصائية المترتبة عن انسحاب الذات داخل النظام البنيوي لتجعلها المنتج الفعلي لفعل اللغة، من خلال الإحالة عليها عبر وساطة النص والخطاب. وهنا تصبح الهرمينوطيقا موجهة نحو نوعين من الإحالات: إحالة على العالم، وإحالة على الذات. يقول "ريكور": «في تبادل الكلام، يكون كل من المتكلمين حاضراً بالنسبة للآخر، وكذلك يكون الوضع، المحيط

¹⁷ المرجع السابق، ص 106.

¹⁸ المرجع السابق، ص 122.

والوسط الظرفي للخطاب كذلك. ولا يكون الخطاب دالاً تماماً إلا مقارنة بهذا الوسط الظرفي للخطاب [...] يحدث أكثر من هذا عندما يأخذ النص مكان الكلام. [...] وسنرى أن النص لا يفتقر إلى المرجع، وسيكون بالضبط مهمة القارئ، بصفتها تأويلاً، أن تنجز المرجعية. فالنص يكون على الأقل في هذا الإجراء الذي تَوَجَّل فيه المرجعية، "في الهواء" بمعنى من المعاني، خارج العالم أو... بلا عالم؛ وبواسطة هذا الإلغاء للعلاقة مع العالم، كل نص يكون حرّاً في الدخول في علاقة مع كل النصوص الأخرى التي حلت محل الواقع الظرفي الذي أشار إليه الكلام المباشر.¹⁹

جدير بالذكر أن قبول "ريكور" بمبدأ انغلاق النص وإنتاج الدلالة الناجمة عن علاقاته الداخلية هو قبول مؤقت لا يتماهى مع الأطروحات البنيوية التي تحسم بشكل نهائي في مسألة غياب الذات والمرجع، بل هو قبول مؤقت تَوَجَّل من خلاله تلك العلاقة المباشرة بين الذوات؛ كما هو الحال في السياقات التواصلية البينذاتية والخطابات الصريحة المباشرة، ليجعل الإحالة على المرجع مؤجلة وليست منقطعة من حيث كونها إحالة ليست بالضرورة مباشرة، بل تبني أساساً على نوع من القصدية التي يفتحها النص أمام القارئ لتمكينه من استكشاف الدلالة المتضمنة فيه. هناك إذن نوع من لامركزية الذات حيث تنسحب هذه الأخيرة من كونها المنتج للمعنى فاتحة بذلك المجال أمام النص ليصبح الموجّه والمحفّز لهذه الإنتاجية من خلال عملية التأويل. ففكرة الإحالة تصبح بذلك حاضرة أيضاً في النظام البنيوي المعاد فهمه؛ بحيث يصبح انغلاق النص يفهم في كون الدلالة لم تعد نتاجاً لدينامية داخلية وحسب، بل أيضاً من خلال النظر إلى هذه الدينامية كمستوى أولي لإنتاج الدلالة عبر فتحه الطريق أمام مختلف الإمكانيات التي يتيحها تأويل النصوص لفهم التجربة الحية والمعيشة وكذلك الوجود في العالم.

هكذا يبدو أن المراجعة العميقة التي قام بها "ريكور" للنظام البنيوي سمحت له بالتمييز بين عالم النص القابل للتفسير، والمرجع الوجودي باعتباره يفتح بشكل كامل

¹⁹ المرجع السابق، ص 108.

أمام الممكن القابل للفهم والتأويل. وهو ما يفتح المجال أمام النص لإنتاج الدلالة والإحالة على المرجع من خلال قصدية النص وتأويله. ويصبح بذلك المرجع ليس تعبيراً عن العلاقة التي تقيمها الكلمات والأشياء في ارتباطها بالواقع، بل مرتبطاً بعالم الممكنات الذي يفتحه تأويل النصوص.

خاتمة

إن الهرمنيوطيقا التي حاول "ريكور" تبني مقاربتها في مشروعه تستحضر السؤال المزدوج حول المعنى: معنى العالم وعالم المعنى. فالهرمنيوطيقا من خلال تصوراتها التأملية تتساءل حول إمكانية فهم العالم ومن خلاله فهم الذات كذات للمعرفة، وتتساءل أيضاً حول إنتاج المعنى وشروط الدلالة من خلال تحليل الخطاب. ومعلوم أن التصورات الهرمنيوطيقية، في مجملها، جعلت دائماً من النصوص الوسيط الأمثل الذي يتيح إمكانية فهم العالم وفهم الذات. فالهرمنيوطيقا عند "ريكور" تعالج في مشروعاتها الإشكالات المتعلقة باللغة والتلفظ والخطاب بانخراطها في مسار تأويلي يأخذ من الخطاب والنص وسيطاً لغوياً قابلاً للتفكيك وإعادة بناء المعنى. وبانتقالها من مستوى الفعل الإنساني إلى الكينونة، تصبح الهرمنيوطيقا منفتحة على الأشكال المتعلقة بالذات والكينونة، وتطرح بالتالي الأسئلة حول الذات في بعدها الوجودي والأنطولوجي. فالتجربة الفعلية للممارسة اللغوية وفهم النصوص تستدعي القارئ وتجعله بدوره منخرطاً في عالم التأويل. كما أنه في عملية القراءة لا يتخذ المتلقي موقفاً سكونياً في مقابل تفعيل خطاب الفعل والكينونة، بل يتبنى حركية ودينامية تضعه أمام ذاتيته في الخطاب المفعّل من خلال ممارسة اللغة والتلفظ، وتعيد موضعه كجزء من إعادة إنتاج التجربة الإنسانية بتوسط الخطاب.

هكذا، فأبي دلالة تصلنا من خلال اللغة والخطاب، تكون مشحونة بدينامية وتوترات، قد تكون مؤطرة في بناء نصي مغلق، لكنها في المقابل تعبر عن إمكانات التجربة الإنسانية كفعل، سواء كان فعلا للكتابة أو القراءة أو التجربة المعبر عنها نصيا. إن الخطاب المؤول، من وجهة النظر الهرمنيوطيقية لدى "ريكور"، لا يعطي للذات القارئة فقط نوعا من الفهم الجديد والمتجدد لذاتها من خلال وساطة اللغة والخطاب، بل يوضع الذات كفاعل وشرط من شروط انبثاق المعنى. فالتجربة الإنسانية المعبر عنها من خلال اللغة، ليس الغرض منها تحقيق نوع من المماثلة الواقعية مع ذات مشخصة أو نمذجة التجربة، بل الإحالة عليها وتأويلها قصد فهمها في بعدها الأنطولوجي وذلك من خلال التعبير عنها عن طريق اللغة والخطاب وطرحها أمام إمكانات الفهم والتأويل. وهنا يبرز صراع التأويلات: صراع يضع التجربة المعيشة تحت سلطة رمزية اللغة، أي داخل صراع حول الدلالة ومن أجل الدلالة.

المصادر والمراجع

- دي سوسور فردينان، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، 1985.
- ريكور بول، الزمان والسرد: التصوير في السرد القصصي، ترجمة فلاح رحيم، ج 2، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2006.
- ريكور بول، حي حتى الموت، ترجمة وتقديم عمارة ناصر، منشورات ضفاف، بيروت، 2016.
- ريكور بول، صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية، ترجمة منذر عياشي، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2005.
- ريكور بول، فلسفة الإرادة: الإنسان الخطأ، ترجمة عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2008.
- ريكور بول، من النص إلى الفعل: أبحاث التأويل، ترجمة محمد برادة-حسان بورقية، ط 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001.
- ريكور بول، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006.
- Greimas Algirdas Julien, *Sémantique Structurale*, Puf, Paris, 1986.
- Ricœur Paul, *Du Texte à l'Action*, Essais d'Herméneutique II, Seuil, Paris, 1986.
- Ricœur Paul, *Réflexion faite*, *Autobiographie Intellectuelle*, éd. Esprit, Paris, 1995.
- Ricœur Paul, *Structure et Herméneutique (La Pensée Sauvage de Claude Lévi-Strauss)*, Esprit, Novembre 1963, repris dans : *Lectures 2*, Seuil, Paris, 1999.
- Taylor Charles, *Une Philosophie sans Frontière*, Magazine Littéraire, N°390, Septembre 2000.